سعد زهران

حديث عن المقاتلين

في هذه الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة أخذت القيادة العربية زمام المبادرة لاول مرة .

ونحب هنا ان نؤكد ان العدو الصهيوني لم يكن يتوقع ، قياسا على ما سبق ، ان ترد القيادة العربية عدوانه يوم ٦ اكتوبر بضربات صاعقة . كان يتصور ان عدوانه في ذلك اليوم لن يعدو أن يكون حلقة في سلسلة حملاته الانتقامية التي تعود على شنها على البلاد العربية دون ان تواجه ـ في اقصى الاحتمالات ـ الا بردود دفاعية، جزئية ومؤقتة . كان العدو يتصور انه سيفرض ، مرة اخرى ، معركة خارج الارض التي يحتلها ، تستغلها ابواق الاستعمار لتأكيد خرافة المناعة الصهيونية التي لا تقهر .

وقد اغرى العدو الصيوني بالاستسلام لهذا الوهم ان الجبهة المصريةطال صمتها وصبرها . ما كان ليتصور ان مصر حين تخرج عن صمتها هذه المرة سترد بلغة مختلفة . ما كان ليصور أن القيادة المصرية قادرة على ان ترد على العدوان بانتزاع زمام المبادرة تماما . كان العدو قد وقع فريسة للحرب النفسيةالتي يشنها هو منذ سنوات طويلة ، والتي تصوره قادرا على العدوان دائما ، قادرا على تحقيق اهداف العدوان دائما .

ووقع العدو الصهيوني فريسة للحرب النفسية التي يشنها هو ايضا حين تصور ان التهديد والابتزاز الذي تمارسه قوى الامبريالية العالمية وعلى رأسها الولايات المتحدة الاميركية ، قادر على ان يشل يد القوات المسلحة العربية عن خوض المعارك الفاصلة معقوات العدوان والاحتلال الصهيوني الى اجل غير مسمى .

كم من الاوهام التي انفق العدو وسادته السنوات في زرعها تبددت في الايام الاولى لهذه الحرب ؟

ـ لقد ثبت ان الجيوش العربية قادرة على ان تخوض ، بنجاح ، المعارك الفاصلة مع قوات الغزو والعدوان ، على الرغم من التهديد والابتزاز الاميركي

ـ وثبت ان مناعة العدو الصهيوني خرافة رخيصة .

وثبت ، وهذا هو الاهم ، ان القيادة العربية ليست قادرة فقط على الرد على العدوان بمواقف دفاعية وجزئية ، وانما بانتزاعزمام المبادرة ، والانتقال من الدفاع الى الهجوم ، والى نقل ميدان المعركة الى الارض التي يحتلها العدو والاجواء والمياه التي يعتبرها تحت سيطرته .

ونؤكد مرة اخرى ان انتزاع زمام المبادرة هو الميزة الكبرى في يد القيادة العربية للحرب الحالية ، تميزها عن الوضعية التي كانت عليها اية قيادة عربية في الحروب السابقة .. وهي ميزة نتمنى من كل قلوبنا ، وندعو الله ، ان تظل دائما بيد القيادة العربية .

فما هي اهم الميزات التي يتميز بها المقاتل العربي في هذه الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة ، والتي لم يكن يتميز بها في حرب عام ١٩٦٧ خاصة ؟

اولا : لقد اصبح المقاتل العربي اليوم متحررا من كثير من الاوهام التي كانت تحد منقدرتهالقتالية.كانتالدعايةالخاطفة تصور، قبلهجوان ١٩٦٧ ، ان المعركة مع العدو اقرب الى ان تكون نزهة عسكرية . اما اليوم ، فان المقاتل العربي يعي تماما معنى الحرب مع عدو غادر شرس ، مسمم بالتعصب العنصري ، مدرب كاداة للغزو والعدوان مدعم بمساندة اميركا ، مدجج باسلحتها . وكم بذل المقاتلون العرب من دم وتضحية ، وكم خاضوا من معارك مريرة ، ليحل الوعي الصعب بالحقيقة محل التعلق بالاوهام السهلة !

ومن مشيئة الاقدار ، ان تتسرب الاوهام الى نفسية الغزاة الصهيونيين ، الذين اعماهم الغرور من كثرة ما استخدموا فيحملات الغزو والاغتصاب . وفي حملات كان الدور الاساسيفيها للمؤامرات الدولية والقوى الامبريالية ، وليس للشجاعة او كفاءة مزعومة في مقاتلين جمعوا من شتات الارض ممن لفظتهم الامم الشعوب. وليس ادل على ان الاوهام قد اخذت ترسخ في وجدان الغزاة مما نقلته وكالات الانباء عن سكان تل ابيب ، وغيرها من مدن العدو ومستعمراته ، في اليوم الاول للقتال كانوا يتجمعون حول اجهزة الراديو التي تذيع نشرة خاصة كل نصف ساعة ، يستعجلون الزمن للاستماع الى ما كانت تمنيه بهم اكاذيب قيادتهم من العودة بسرعة الى ضفاف القناة مرة اخرى ـ ثم اجتيازها !!

الا فليختنقوا بغيظهم ، وليهلكوا بكمدهم .

وليحفظ الله على مقاتلينا سلامة وعيهم وصفاء اذهانهم وصلابة عودهم .

ثانيا : اصبح المقاتل العربي اليوم اكثر ادراكا للمسئولية ، اعني المسئولية القتالية .

وفي جبهة مشتعلة ، كثيرة المتغيرات ، ما احوج الوطن الى مثل هذا الادراك للمسئولية القتالية ، يعني ان كل مقاتل يشعر ان مصير الوطن كله متعلق بالطلقة التي يصوبها الى قلب هدف العدو . وتعني المسئولية القتالية ان المبدأ الاساسي حين يعزل المقاتل او يفقد الصلة بالقيادة في جبهة ملتهبة ، ان يظل يقاتل الى اخر طلقة ، والى اخر قطرة من دمه .

ان مقاتلينا اليوم ، بعد كل مرارة السنوات الست الماضية، مصممون على ان يقاتلوا دائما ووجههم دائما الى الامام .ولن تثنيهم عن روح الاستشهاد والاستماتة اية مفاجآت طارئة على ارض بجبهة ملتهبة كثيرة المتغيرات . ان الغزاة في الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة يواجهون انسانا عربيا ببعث من جديد بقوة من يعرف انه لن يفقد شيئا الا الاغلال .

ثالثا : اصبح المقاتل العربي ، في الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة ، اكثر معرفة بالسلاح الحديث .

فاغلبية المقاتلين على خط النار سبق ان خاضوا مع العدو حربا او اكثر من حرب . ان كل انواع الاسلحة التي اخترعتها قوى الحرب والعدوان (باستثناء الاسلحة النووية فحسب) قد خبرها المقاتل العربي في سلسلة حروب العدوان التي يشنها علينا الاستعمار وكلابه كل بضع سنوات منذ ١٩٤٨ . وقد نمت اشكال من (الالفة) بين مقاتلينا وبين القنابل زنة الف رطل ، والنابالم ورصاص دمدم ، والالغام ، والصواريخ جو ـ ارض ، وارض ـ ارض ،وبحر ارض ـ ، والدبابات والمصفحات ، والمجنزرات وانصاف المجنزرات ـ وهذه الالفة بين المقاتل وانواع السلاح ضرورية لان يقتحم المقاتل ميدان الحرب بروح عالية ويد ثابتة .

وقد اصبح مقاتلونا يعرفون كيف يستخدمون كل انواع الاسلحة الا تلك التي يستبيح العدو استخدامها لانها محرمة دوليا ـ مثل رصاص دم دم ،بل واصبحوا يجيدون استخدام انواع لا يعرفهاالعدو، وهي اسلحة حصلنا عليها من اصدقائنا ولم يتوصل العدو الى اسرارها بعد ، مثل صواريخ (سام ٣) التي تساعد على تساقط طائرات العدو التي ملأوا الدنيا دعايات عن مناعتها ، كما تتساقط الفراشات في النيران . لقد تمت الفة من نوع اخر بين المقاتلين العرب وسلاحهم ، وهي الفة حميمة تكسب المقاتل روحا عالية وثقة من نوع خاص .

تحضرني قصة رواها لي احد المقاتلين اثناء حرب الاستنزاف على قناة السويس (١٩٦٩ ـ ١٩٧٠) تلخص هذه الالفة مع الخطر الذي تمثله اسلحة العدو ، وتلك الالفة بين المقاتل وسلاحه هو ، حدث ذلك في احدى الليالي التي عبرت فيها وحدات منقوات « الكوماندوس » المصرية الى الجانب الاخر ، حيث دمروا بعض منشآت العدو ونصبوا كمينا لبعض قواته . وقد استدعى العدو عشرات من اسراب « الفانتوم » لتمطر الجبهة بمئات من القنابل

زنة الف رطل . وفي تلك الليلة اوقعت قوات الكوماندوس خسائر معتبرة بقوات العدو ، وعادت الا اثنان فقط ، استشهدا بان القيا بجسميهما على لغمين ليمر عليهما زملاؤهما الى خطوط العدو . ولم تصب مئات القنابل اصابات مباشرة الا خمسة مقاتلين فحسب على الجانب المصري ، بينما طاشت كلها تقريبا بسبب تدرب المقاتلين المصريين على تلافي المواقع والاوضاع الخطرة ... في تلك الاثناء ، كانت بعض القنابل والقذائف تتساقط في مياه القناة ، فكانت تصيب اسماك القناة بالدوار فتطفو على السطح وهي في حال بين الحياة والموت .

وبعد ان هدأ تبادل اطلاق المدفعية من الجانبين ، وارتدت موجات الفانتوم ، وشعر كثير من المقاتلين المصريين انهم اصبحوا (بلا عمل) موقتا ، كانوا يزحفون الى القناة ليسحبوا بعض الاسماك الكبيرة (وقد كبرت اسماك القناة خلال هذه السنوات) لينعموا بعد ذلك بأكلات شهية من الاسماك الطازجة .

وكم ضحك المقاتلون في اليوم التالي حين استمعوا الى اذاعة العدو التي ذكرت ان « المصريين ظلوا طوال الليل يسحبون جثث ضحاياهم الطافية على سطح مياه القناة بعد انتهاء الالتحام !! »

رابعا : اصبح المقاتل العربي اكثر ادراكا للدور الهمجي للغزو الصهيوني . فهؤلاء المقاتلون الذين شهدوا حربا او اكثر من حرب مع العدو ، رأوا عشرات القرى التي دمرها المعتدون ، والاف الابرياء الذين قتلوا ، وعشرات الالوف من مواطنيهم الذين انتزعوا من ارض الاباء والاجداد ليفسحوا المجال امام شراذم مأجورة مستجلبة من نفايات الامم . لقد عرف المقاتل العربي ، بعد تجارب دموية لاكثر من جيل ، معنى الاستعمار الصهيوني الاستيطاني ، معنى العنصرية الفاشية .. عرفها من ذكريات جثث رفاق له تناثرت اشلاؤهم حوله على رمال سيناء وعلى مرتفعات الجولان وفي بيارات غزة والجليل ... وعرفها من ذكريات قوافل المهاجرين المشردين يهيمون على وجوههم في البرية يحملون شيوخهم واطفالهم وطائرات العدو تنقض عليهم وتحصد منهم من تستطيع حصده بالقذائف والصواريخ .. وعرفها في مخيمات اللاجئين التي يلفها الجوع والبرد والظلام ـ الا شعلة من حقد وامل تضيء نفوسا وصلت الى حدود اليأس القادر على تفجير الارض والسماء.

خلال حرب او اكثر من حرب خاضها المقاتلون العرب ، بقدر ما تتزايد الفتهم مع الخطر واستهانتهم بالموت ، بقدر ما تتزايد الفتهم مع اسلحتهم ، يطلق طلقة او يطعن طعنة تطهر الارض الصهيونية ، بقدر ما يتوق كل واحد فيهم الى اليوم الذي يستطيع فيه ان يطلق طلقة او يطعن طعنة تطهر الارض العربية من الفزاة ... ان المقاتل العربي اصبح اكثر ادراكا لدوره في انزال القصاص العادل بالعنصريين الفاشيين المجرمين .

خامسا : اصبح المقاتل العربي اليوم ارفع في مستواه الثقافي العصري مما كان في اية حرب سابقة .

لقد دخل ذوو المؤهلات العالية والمتوسطة القوات المسلحة العربية ـ منذ ١٩٦٧ ـ بمئات الالوف . وعلى جبهات القتال ،في الخنادق والمخيمات ، وفي مواجهة الخطر في حرب الاستنزاف وبعدها ـ تنهار الفوارق الاجتماعية بين المقاتلين . ينشف عود المؤهلين من ابناء الطبقة المتوسطة ، بينما يرتفع المستوى التعليمي والثقافي العام لاخوانهم ابناء الفلاحين والعمال والطبقات الشعبية ، ويتخلق المقاتل العربي ، الذي يجمع بين صلابة العود واتساع الافاق ، القادر على استخدام السلاح الحديث مع الحياة الخشنة على الكفاف . هؤلاء هم شباب العرب الذين يسطرون اليوم صفحات مضيئة من تاريخنا بدمائهم الزكية ، وفيهم تتخلق سمات مواطن المستقبل ، الذي ينتزع مصيره متسلحا بالعلم ، وبالمثل الرفيعة لشعب اصيل .

سادسا : اصبح المقاتل العربي اليوم اكثر ادراكا لحقائق المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي تعاني منها بلاده ، واقدر على الربط بينها وبين قضية التحرر العربي .

فشعب مثل شعب مصر ، يعيش غالبية سكانه على الكفاف، ويتطلع الى التخلص من التركة الاستعمارية التي هي الفقر والتخلف، ويبذل جهودا مضنية دؤوبة لبناء اقتصاد عصري قادر على مواجهة التحديات ـ هذا الشعب يقتطع من قوته الضروري لكل عام مبالغ طائلة تقترب من مليار جنيه (اي ما يزيد على عشرة مليارات من الدينارات) لمواجهة اعباء النفقات العسكرية اللازمة للصمود امام كابوس العدوان الصهيوني الامبريالي الجاثم في اراضيه .

صحيح ان هذه الارقام الفلكية التي تقاس بالملايين والمليارات يصعب على المواطن العادي تصورها او تقديرها ، ولكنه يلمس اثرها المرهق في الغلاء المتصاعد ، وفي الازمات التي لا تنتهي في المواد التموينية ، وفي تعثر المشروعات العمرانية وتفاقم مشكلات السكنى والمواصلات في المدن وفي انكماش فرص التعليم والعمل .. وفي الف وجه من وجوه الحياة اليومية التي ينوء بها كاهل الناس ويشعرون بفداحتها ، ليس فقط في ادنى السلم الاجتماعي وانما ايضا بين المراتب الاجتماعية المتوسطة .

ان المقاتلين هم ابناء الشعب الذين اضيروا في قوتهم اليومي وهددوا في مستقبلهم بسبب الاستنزاف المستمر لمواردهم ، بفعل الضغوط الاقتصادية للامبريالية والضغط العسكري لكلب حراستهم الصهيوني . ولا توجد قوة قادرة على طمس مسؤولية الامبريالية والصهيونية فيما تدفع اليه الحياة الاقتصادية في دول المواجهة، وما يترتب عليها من ضغوط اجتماعية . وبقدر ما يزداد احساس الشعب بفداحة اعباء الحياة ، بقدر ما تزداد كراهيته للامبريالية وتتراكم احقاده على كلاب حراستها الفزاة الصهيونيين . وليس مثل لحظات الالتحام في قتال مباشر مع العدو فرصة لطعن جسم الوحش الامبريالي الصهيوني المسؤول الاصلي عن كل ما تعانيه الشعوب من فاقة وتخلف ، فضلا عما تعانيه بلادنا من تعد على حرماتها ، واحتلال لاراضيها ،وامتهان لكرامتها .

ان الامبرياليين وكلاب حراستهم الصهيونيين يخطئون اذا تصوروا ان الامعان في افقار الشعوب واثقال كاهلها بأعباء الخبز اليومي يمكن ان يقتل معنويات هذه الشعوب او يحملها على الاستسلام. والصلابة والتصميم التي يقاتل بها الجنود العرب في جبهات القتال اليوم هي الدليل على صحة ما نقول ، وهي الدليل على ان حسابات الامبرياليين والصهيونيين خاطئة ، بقدر ما هي همجية ولا انسانية .

سابعا : اصبح المقاتل العربي اليوم اكثر ادراكا للحقائق السياسية ، واكثر ادراكا لدوره في تحديد مسارها .

واهم حقيقة سياسية ادركها المقاتلون العرب هي ان العدو الصهيوني ذو طبيعة عدوانية توسعية لا يرجى لها صلاح ، ولا خلاص من عدوانه الا بتدمير قوته . فالقوة هي اللغة الوحيدة التي يعرفها الفزاة الهمجيون .

وعلى الرغم من كثرة الحديث عن الحلول السلمية ، وعلى الرغم من استمرار حالة « اللاسلم واللاحرب » سنوات طويلة ، فان ذلك ـ بحمد الله ـ لم ينل من معنويات المقاتلين ،ولم يزحزحهم عن اقتناعهم الراسخ بان المعركة مع المعتدين الفزاة لا ريب فيها، وان النتيجة النهائية لن تتوقف على براعة المفاوضين او مناورات السياسيين ، وانما هي قدرة المقاتلين على الصمود وخوض المعارك .

وفي هذا المقام ، لا يسعنا الا ان نشيد بالروح العالية للشعب العربي اينما كان ، ومن مختلف المراتب الاجتماعية . فطوال السنوات الست الماضية كان الصوت الاعلى هو صوت المعركة. وعزل دعاة الهزيمة وخفتت اصواتهم امام هدير طلاب الجامعات الذين لم يهدأوا يوما ، ومظاهرات الجماهير ـ، ودعوات القيادات الواعية الشجاعة ، واصرار الفدائيين ، ومؤلفات الكتاب والمفكرين ، وابداع الفنانين ، ودعوات الامهات لابنائهم على خط النار .. امام الف مظهر ومظاهرة من مظاهر ومظاهرات الاصرار على المقاومة والسعي الى لقاء العدو على ساحة القتال .